

لقد كان طابع المدنية الحديثة طابعا قوميا، فكل أمة ترى الخير في مصلحتها الخاصة بها، ولا تعترف بأى مصلحة لغيرها، وتزعم أنها أحق بالسيادة على الأمم الأخرى المستضعفة، وخدم العلم والأدب والتربية، هذه النزعة القومية حتى بلغت القمة، ونشأ عن ذلك مقياس أخلاقي جديد، وهو ان ما كان في مصلحة الأمة فخير مهما ضر الآخرين، وما ضر الأمة فشر مهما نفع الآخرين، وساد في كل أمة أوروبية الشعور بالكره لغيرها والخوف من غيرها، فانجلترا تكره ألمانيا وتخافها، وألمانيا تكره إنجلترا وتخافها، وهكذا العلاقات بين الدول، فان كان هناك مسالمة وتودد فأمر ظاهري فقط، ورياء ونفاق لا حب ولا إخلاص، وظل هذا هو الشأن في المدنية الحديثة من عهد أن تكونت القومية إلى اليوم.

وكل أمة أوروبية قوية تعبد المجد؛ ومعنى المجد حب العظمة والسيطرة، والاعتزاز بالقوة، وكان من أثر هذا المجد عند كل أمة كبيرة رغبتها في أن تسيطر على أكبر رقعة من الأرض تستطيع السيطرة عليها، وفي أن يكون لها مستعمرات أو ممتلكات واسعة فسيحة، وهذا المجد القومي غير المجد الخلقى، فالمجد الخلقى هو العمل على وفق القوانين الأخلاقية العالمية من عدل ووفاء وإحسان ونحو ذلك؛ أما المجد القومي فهو سيطرة واستغلال وتسخير للأمم الضعيفة لمصلحة الأمة الكبيرة، ولو اضطرها ذلك إلى إسالة الدماء البريئة، وإذلال الأعزة ورفع شأن الأذلة، وهذا ليس من الأخلاق في شيء؛ والسياسي الماهر في المدنية الحديثة هو من استطاع أن يذل الأمم المحكومة ويكبت صوتها، ويعلى من شأن أمتة ويظهر سيطرتها.

ولما تغلبت الوطنية وحب المجد على أمم أوروبا وأمريكا تنافست في السيطرة طلبا لهذه العزة الكاذبة، فتسابقوا جميعاً للاستعمار، وكان الاستعمار في نظرهم هو إخضاع الأمم المستعمرة وإذلالها ما أمكن، واستغلال مواردها، وفتحها سوقا لتجارتها ومنافعها. ولا عبرة عندها بخلق أو فضيلة، حتى لو رأت الأمة الفاتحة أن تجارة اخمر، أو! لأفيون، أو المخدرات